قالت العرب

..إن الشعوب كالأشخاص ..فى طور الطفولة تميل إلى التحطيم..و فى طور الرجولة تنصرف إلى الإنشاء ..

توفيق الحكيم

المشهد

العدد 342 - السنة الرابعة عشر ـ 6 أكتوبر 2025 - 14 ربيع الثانى 1447هـ

ترامب تساءل لماذا لاتنضمون لنا فى كوريا الشمالية

تساءل الرئيس الأمريكي: «لماذا نحمى دولًا لا ترغب فى دفع ثمن أمنها؟» هذا ليس عادلا

الأمين العام السابق لحلف شمال الأطلنطي يروي رحلة التقلبات الحادة التي خاضها مع الرئيس الأمريكي:

هكذا أوصل ترامب حلف الـ «ناتو» إلى حافة الانهيار

هناك أى دولة أخرى تعنى لحلف الناتو أكثر من الولايات المتحدة. فهى تتمتع بمكانة فريدة بين الدول الأعضاء بفضل ثقلها السياسى والاقتصادى والعسكرى. ولذلك، تُعدّ القوى المهيمنة على السياسة الأمريكية – ومن فى البيت الأبيض – عوامل حاسمة. لذا، لم تكن الانتخابات الرئاسية فى نوفمبر ٢٠١٦ مهمة للولايات المتحدة فحسب، بل لجميع دول حلف الناتو أيضًا.

خلال الأشهر الستة الأولى من عام ٢٠١٦، كانت هيلارى كلينتون متقدمة فى جميع استطلاعات الرأى . وبحلول الخريف، كان خبراء الانتخابات يتوقعون فوزها. أنا أيضًا كان لديّ شعورٌ داخليٌّ بأن هذه ستكون النتيجة. فى ليلة الانتخابات، رتّبتُ أنا وزوجتى إنغريد حفلة مع الأصدقاء والزملاء فى مقر إقامتنا فى بروكسل. جهّزنا جهاز تلفزيون كبير فى غرفة المعيشة، وقدّم الهامبرغر. كان يومًا طويلًا ينتظرني، لذا خلدتُ إلى النوم قبل منتصف الليل.

استيقظتُ الساعة الخامسة وتفقدتُ هاتفي. فاز دونالد ترامب فى بنسلفانيا وأوهايو . لم يكن الأمر مؤكدًا تمامًا، لكن شبكة سى إن إن أفادت بفوزه. عندما نزلتُ لتناول فطورنا الانتخابى الساعة السادسة، كان الآخرون متفاجئين تمامًا مثلي.

كنتُ قلقًا بشأن ما سيحدث لاحقًا، لأننى لاحظتُ مدى انتقاد ترامب لحلف الناتو خلال حملته الانتخابية. فى مقابلة تلفزيونية أواخر مارس، قال: «حلف الناتو عفا عليه الزمن» – وهى وجهة نظر قوضت السياسة الخارجية الأمريكية على مدى السبعين عامًا الماضية. واجه ترامب انتقادات من عدد من كبار الشخصيات الجمهورية، لكن يبدو أن هذه الانتقادات لم يعرها اهتمامًا. فى الوقت نفسه تقريبًا، سُئل عمن سيستشيره عندما يحتاج إلى نصيحة فى السياسة الخارجية. أجاب: «أتحدث مع نفسي، أولًا، لأن لديّ عقلًا ثاقبًا».

لقد انتخب الشعب الأمريكى ترامب، وكان علينا احترام ذلك. أردتُ أن يُنشيء الناتو علاقة عمل جيدة معه فى أسرع وقت ممكن، من أجل دفعه وإدارته إلى تبنى وجهة نظر أكثر إيجابية تجاه التحالف. داخل الناتو، سيكون الإنضباط الذاتى ضروريًا. أوضحتُ أن التذمر المنهك فى الاجتماعات الداخلية أمر غير مقبول. لن يكون هناك استهجان من تغريدات ترامب أو ظهوره العلني؛ ولا ضحك ساخر على مقاطع الفيديو؛ ولا نكات حول لعب الجولف أو تصرفاته. كان عدم التسامح مطلقًا أمرًا بالغ الأهمية. يمكن لمجموعة صغيرة من الأفراد الذين يسخرون أن تنتشر فى جميع أنحاء المنظمة وتتسرب. وإذا وصل إلى واشنطن أن موظفى الناتو يجلسون ويضحكون على دونالد ترامب ، فسيكون ذلك مدمرًا.

ناتو المعجب بالناتو

فى يوم الجمعة ١٨ نوفمبر، تواصلت مع ترامب لأول مرة. قال: «أنا من أشدّ المعجبين بحلف الناتو! سررتُ بالتحدث معك، وأتطلع للعمل معك». خلال حديثنا، شعرتُ بصدمة طفيفة لأننا بدا أننا متفقان فى معظم الأمور الجوهرية. كان ترامب يعتقد أن الدول الأوروبية الأعضاء بحاجة إلى زيادة إنفاقها على الدفاع. قلتُ: «أتفق معك تمامًا فى هذا الشأن». كان تقاسم الأعباء بشكل أكثر عدلًا وزيادة الإنفاق الدفاعى هما ما قضيتُ معظم وقتى أعمل عليه منذ توليتُ منصبي. قال ترامب إن الناتو بحاجة إلى أن يكون أكثر استعدادًا لمحاربة الإرهاب. فأجبته مجددًا: «أتفق معك تمامًا فى هذا الشأن».

أراد أيضًا أن يسمع رأيى فى الأشخاص الذين كان يُرشّحهم لمناصب رئيسية. فوجئتُ، لكننى لم أعارضه. ريكس تيلرسون وزيرًا للخارجية؟ كنتُ أعرفه قليلًا من خلال صناعة النفط ومؤتمرات الطاقة فى التسعينيات. قلتُ: «اختيارٌ موفق».

جيم ماتيس وزيرًا للدفاع؟ الحقيقة أن المعلومات القليلة التى كنت أعرفها عنه جاءت من مسلسل «جيل القتل» على قناة أتش بى أو عن حرب العراق، والذى شاهدته مع ابني: يُصوّر ماتيس كشخصية أسطورية، جنرال يُهاب ويُعجب به، يُعرف باسم «الفوضى». ساد صمتٌ مُحرجٌ بعض الشيء قبل أن يُسلمنى تورجير لارسن، مدير مكتبى الخاص الذى كان يستمع إلى المحادثة، رسالةً كُتب فيها: « جيم ماتيس رائع. إنه يعرف الناتو»

قلتُ لترامب: «جيم ماتيس عظيم. إنه يعرف الناتو جيدًا».

بعد تلك المحادثة الأولى، شعرتُ أن الأمور بدت أكثر إشراقًا. ومثل كثيرين غيري، اختلفتُ مع آراء ترامب بشأن تغير المناخ، وحقوق الإجهاض، والسياسة التجارية، لكن جوهر ما قاله عن حلف الناتو فى حديثنا كان أمرًا أستطيع استيعابه.

تقييم خاطيء

بعد الانتخابات بفترة وجيزة، دعا باراك أوباما الرئيسَ الجديد إلى البيت الأبيض. كان لقاءً تصالحيًا. شكره ترامب على جهوده؛ بينما قال أوباما كل ما ينبغى على الرئيس المنتهية ولايته قوله.

وهذا أيضًا كان مُشجعًا. فكّرتُ أن الأمور ستهدأ: الآن وقد انتهت الانتخابات، سيتأثر ترامب بدوره الجديد ومسؤولياته. بوجود أشخاص أكفاء حوله، سيصبح ترامب أشبه بمن سبقوه فى البيت الأبيض. كان هذا هو التقييم الخاطئ الثانى الذى قمت به بشأن دونالد ترامب.

فى منتصف أبريل ٢٠١٧، كنتُ فى البيت الأبيض، مُستعدًا للقاء دونالد ترامب لأول مرة. كنتُ قد أعددتُ بعض المجاملات عن فوزه الانتخابى وعن ميلانيا ، السيدة الأولى. فتح باب مكتبه، لكن لم يكن هناك رئيس ينتظر. استرخى ترامب على كرسيه باستخفاف. مبتسما قال «تفضلوا بالدخول يا شباب».

عندما استقبل ترامب رئيس الوزراء اليابانى شينزو آبى قبل بضعة أسابيع، استمرت المصافحة ١٥ ثانية، وكانت قوية لدرجة أن آبى تألم. وتعرض رئيس الوزراء الكندى جاستن ترودو لمعاملة مماثلة. وبعد ذلك بقليل، اختار الرئيس الفرنسى إيمانويل ماكرون أن يمسك بقوة شديدة حتى ابيضت مفاصله. وقد حظى كل هذا بتغطية إعلامية واسعة ، حيث اعتقد بعض المعلقين أن ترامب كان يحاول تأكيد تفوقه من خلال مصافحته، بينما أشار آخرون إلى أنه كان مهتمًا بصورته الذكورية. وقبل زيارتى بفترة وجيزة، التقى بالمستشارة الألمانية أنجيلا ميركل ، ورفض مصافحتها أمام المصورين. وقد كتب الكثير عن ذلك أيضًا.

عندما نهض ترامب، ممدودًا يده، شعرت ببعض القلق. لكن قبضته كانت طبيعية بشكل مخيب للآمال، لا قاسية ولا مرتخية.

لكن عندما بدأ الحديث، اتضح سريعًا أن هذا سيكون فضفاضًا للغاية. انتقلنا من موضوع لآخر. وبينما كنا نتحدث عن روسيا، صرح ترامب فجأة: «لكن لماذا لا تتضمون إلينا فى الناتو فى الأزمة مع كوريا؟ إنهم يطورون أسلحة نووية، وهذا أمر لا نقبله».

قبل شهرين، أعلن زعيم كوريا الشمالية، كيم جونغ أون ، أن الاستعدادات لاختبار صاروخ نووى عابر للقارات قد وصلت إلى مرحلتها النهائية؛ وأعقب هذا الإعلان إطلاق صواريخ متوسطة المدى سقطت فى بحر اليابان. لذا، لم يكن حديث ترامب عن كوريا الشمالية مفاجئًا تمامًا. لكننى لم أكن متأكدًا مما يعنيه. هل كان يريد تدخل الناتو فى كوريا الشمالية؟.

قلت: «سيدى الرئيس، إن جميع الحلفاء قلقون بشأن الأسلحة النووية، ولكننى لا أعتقد أنه سيكون هناك أى دعم لقصف كوريا الشمالية».

«لكنك فى أفغانستان. لماذا لا يمكنك أن تكون فى كوريا الشمالية؟» أجاب ترامب.

قبل أن ينتقل الحديث سريعًا. تطرقنا إلى الإرهاب وتنظيم الدولة الإسلامية، بالطبع، حيث أعلن ترامب: «علينا قتلهم، علينا قصفهم، إنهم أشرار حقًا».

سرعان ما عاد حديثنا إلى روسيا، وكررتُ النقاط التى كنتُ حريصًا على طرحها منذ توليتُ منصبى فى حلف الناتو. قلتُ: «يجب أن نكون أقوياء وقابلين للتنبؤ، ولكن منفتحين على مواصلة الحوار مع روسيا. روسيا باقية هنا. إنها دولة مجاورة، وليست منظمة إرهابية يجب القضاء عليها، مثل داعش».

ثم، كما فعلت فى أحاديث أخرى عديدة، أشرتُ إلى تجارب النرويج. «كما تعلم، سيدى الرئيس، بصفتى رئيس وزراء النرويج السابق، أعلم أنه من الممكن التحدث مع الروس».

ألقى ترامب نظرة استفهام. «هل أنت نرويجي؟»

فهمتُ سبب سؤاله، فقد استقبلت بنفسى على مر السنين العديد من رؤساء المنظمات، وليس من السهل دائمًا تذكر أصول كل منهم. ابتسمتُ قائلًا: «نعم، أنا نرويجي».

وقال: هل تعرف سيلينا ميدلفارت؟

أجبت: نعم، التقيت بها عدة مرات. إنها شخصية معروفة فى النرويج.

– يا لها من فتاة لطيفة. ما كتبوه عنا فى الصحف النرويجية – كان جيدًا أم سيئًا؟ أتذكر رؤية صور فى الصحف لترامب ووريثة شركة مستحضرات التجميل النرويجية والمستثمرة فى حدث رياضى أو آخر، لكننى لا أتذكر أكثر من ذلك. لم أكن أعرف ما قالته الصحف.

«أجل، كان التقرير إيجابيًا. هى الآن متزوجة من رجل نرويجى ثري»، قلت.

«إنه ليس غنيًا.» رد ترامب

من الواضح أن رئيس الولايات المتحدة كان يعرف من هو المستثمر تور أولاف تريويم. ولكن هل كنتَ ثريًا لو كنتَ تملك بضعة مليارات كرونة؟ ربما لا، فى نظر دونالد ترامب.

إلى النص الذى كان ترامب يقرأه، تمت إضافة بضع كلمات بقلم أسود سميك: «يجب أن يدفع» و«ليس عادلا».

بعد حوالى عشرين دقيقة، انتهى حديثنا الخاص. انضم إلينا مستشارو ترامب وعدد من أعضاء وفدي. لاحظتُ زملائى ينظرون بقلق بينما صافحتْ ترامب مرة أخرى من أجل المصورين. لكن الجميع حُرم من حكاية طريفة.

بالنسبة لترامب، كانت القضية الأهم هى إنفاق دول الناتو على الدفاع. أردتُ منه أن ينظر إلى التحالف بتفاؤل أكبر، وقد أحضر معه رسمًا بيانيًا يوضح تزايد الإنفاق. كان ترامب قلقًا للغاية من أن خمس دول أعضاء فقط قد حققت هدف إنفاق ٢% من الناتج المحلى الإجمالى على الدفاع. أشرتُ إلى أن العديد من الدول قريبة من تحقيق هذا الهدف، وأن ست أو سبع دول أخرى على وشك بلوغه قريبًا. ثم هناك أيسلندا: ليس لديها قوات مسلحة، لذا لن تنفق ٢٪ من ناتجها المحلى الإجمالى على الدفاع أبدًا . وبالتالي، فإن خمس دول من أصل ٢٧ دولة هى التى حققت الهدف، وليس خمس دول من أصل ٢٨، كما قلتُ، معتقدًا أننى قد أبدو غريب الأطوار مع كل هذه الأرقام.

لكن هذا لفت انتباه ترامب، وإن لم يكن بالطريقة التى قصدتها. «إذن، ماذا نريد من أيسلندا؟»

قبل أن أتمكن من قول أى شيء آخر، هرع جيم ماتيس لمساعدتي، موضحًا أهمية قواعد الناتو هناك لغواصات التحالف وسفنه وطائراته: «سيدى الرئيس، من الجيد وجودها إذا كنت ترغب فى تعقب الغواصات الروسية». فكّر ترامب للحظة. ثم قال: «حسنًا، إذن سنسمح لأيسلندا بالبقاء عضوًا».

سجادة زرقاء

فى حلف الناتو، لا نفرش السجادة الحمراء أبدًا، بل نفرشها زرقاء. يوم الخميس ٢٥ مايو ٢٠١٧، فرشنا سجادة زرقاء زاهية، طويلة وواسعة، امتدت من المدخل الرئيسى إلى الطريق المؤدى إلى مقر الناتو. انعكس اللون الأزرق على لون علمنا، الذى يرمز إلى المحيط الأطلسي، الذى يلتف حوله الحلف. كان كل شيء جاهزًا لحفل كبير حضره رؤساء دول وحكومات الناتو.

فى هذا اليوم، كان من المقرر أن يُشارك الرئيس ترامب لأول مرة فى قمة حلف شمال الأطلسى (الناتو)، وسنفتتح أيضًا المقر الجديد للحلف. وبينما كنتُ أتطلع إلى قيادة وقائع القمة، شعرتُ ببعض القلق. فبعد اجتماعنا فى البيت الأبيض قبل بضعة أسابيع، عادت الشكوك حول نظرة ترامب الحقيقية لحلف شمال الأطلسى (الناتو) إلى الظهور.

المادة الخامسة من معاهدة شمال الأطلسى (الناتو) هى بند الدفاع الجماعى لحلف الناتو، وتمثل جوهر التحالف: الواحد للجميع والجميع للواحد. رفض ترامب الإجابة بنعم واضحة على سؤال ما إذا كانت الولايات المتحدة لا تزال ملتزمة بهذا الضمان، على الرغم من تساؤلات الصحافة المستمرة. قال ترامب: « لماذا نحمى دولًا لا ترغب فى دفع ثمن أمنها؟ « . أثار هذا قلق العديد من الحلفاء. فمن وجهة نظرهم، كان ترامب يُحوّل الناتو إلى مجرد أداة حماية.

بعد تبادل بعض المجاملات، كانت الخطة هى اصطحاب ترامب إلى مكان نقش فيه نص المادة الخامسة على الحائط، لالتقاط صور لنا أمامه. كنت أنوى أن أعرض على ترامب بعض المعلومات حول المبنى الجديد وحلف الناتو، لكن أسئلته المستمرة كانت تقطع عليّ الكلام. سأل: «هل تحتاجون حقًا إلى مقر كبير كهذا؟» «لماذا تحتاجون كل هؤلاء الناس؟»

أجبتُ بأنه على الرغم من أن المنظمة نفسها ليست كبيرة، إلا أن وفود الدول الأعضاء تستخدم المبنى أيضًا، مما يُسهّل الاجتماع مع تطبيق إجراءات أمنية مُتّخذة، ويستخدم الجميع الكافتيريا نفسها. أخبرتُ ترامب بمن صمم المقر الرئيسى : المهندسون المعماريون سكيدمور، أوينغز وميريل، الذين صمموا أيضًا فندق وبرج ترامب الدولى فى شيكاغو .

«أعرف هؤلاء الأشخاص. إنهم باهظو الثمن للغاية»، صاح ترامب. «لا أفهم لماذا اخترتم هؤلاء المهندسين المعماريين الباهظى الثمن. باهظو الثمن للغاية!»

أمام المدخل الرئيسي، شُيّد ممر صغير من الأشجار المزروعة حديثًا، وعلى جانبيه مروج. على أحدها، وقفت عارضة فولاذية ملتوية من برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك؛ وعلى الجانب الآخر، قطعتان من جدار برلين. شاهدان على بعض من أهم الأحداث فى تاريخ حلف الناتو. قدّمتُ أنجيلا ميركل كمتحدثة، مُذكّرةً الجميع بأنها كانت تعيش فى برلين ليس فقط عندما شُيّد الجدار عام ١٩٦١ ، بل أيضًا عندما هُدم عام ١٩٨٩، وتغيّرت أوروبا إلى الأبد.

كل يوم، يمرّ كل من يدخل هذا المبنى بهذا النصب التذكاري. سيدركون أن الحرية لن تُهزم أبدًا. وسيدافع الناتو دائمًا عن القيم التى بُنى عليها تحالفنا، هذا ما قلتُه. أعربت ميركل عن امتنانها لوجود الناتو خلال الحرب الباردة، وقالت إن سقوط الجدار يرمز إلى انتصار الديمقراطية، حتى بعد سنوات طويلة من النضال.

ثم جاء دور ترامب، واقفًا أمام قطعة من بقايا برجى مركز التجارة العالمي. أطلق على النصب التذكارى اسم «نصب الحادى عشر من سبتمبر والمادة الخامسة» ، للتأكيد على رمزيته للتضامن داخل حلف الناتو. قدّمتُ ترامب مؤكدًا على هذه الوحدة. قلتُ: «تكمن أعظم قوة حلف الناتو فى الرابطة الدائمة بين أمريكا الشمالية وأوروبا. لقد رأينا قوة هذه الرابطة بعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر على الولايات المتحدة».

وتابعت: «يا رئيس ترامب، ضربت تلك الهجمات قلب مدينتك، نيويورك. ولأول مرة، فعّل حلف الناتو بند الدفاع الجماعي، المادة الخامسة. الواحد للجميع، والجميع للواحد».

كنتُ قد هيأت له اللقطة. كل ما كان على ترامب فعله هو تسليط الضوء على جهود حلف الناتو عندما تعرّضت الولايات المتحدة للهجوم، وطمأنة جميع الحاضرين بأن الأمر نفسه سينطبق عليهم إذا احتاجوا إلى مساعدة.

بدأ ترامب حديثه مطولاً عن خطر الإرهاب. لم يكن هذا غريباً، فقبل ثلاثة أيام فقط، فى ٢٢ مايو/أيار، هاجم انتحارى مدينة مانشستر فى المملكة المتحدة. أدان ترامب الهجوم الذى أسفر عن مقتل ٢٢ شخصاً وإصابة المئات. بعد ذلك، تطرق إلى التهديد الذى تمثله روسيا.

ثم جاءت اتهامات المحاسبة. قال ترامب: «ثلاث وعشرون دولة من أصل ٢٨ دولة عضو فى حلف الناتو لا تزال لا تدفع ما تستحقه من نفقات دفاعية. هذا ليس عدلاً لشعب الولايات المتحدة ودافعى الضرائب فيها».

فى اليوم السابق، تسلّمنا سرًا نسخة من الخطاب الذي سيلقيه الرئيس. كان الخطاب ممتازًا، إذ غطى جميع النقاط المهمة، بما فى ذلك التزامات المادة الخامسة. ولكن فى مرحلة ما، لا بد أن ترامب اختار إلقاء خطاب مختلف عن الخطاب المُعدّ.

بينما كنتُ واقفًا بجانبه، تمكنتُ من إلقاء نظرة سريعة على النص الذى كان يقرأه. كانت هناك بضع كلمات مُضافة بقلم تحديد أسود سميك: «يجب الدفع»، «غير عادل»، و«٢٪ هو الحد الأدنى المطلق!». شطب بوضوح بعض الكلمات وأضاف أخرى، لتوضيح الرسالة. ها هو ذا يُكرّس النصب التذكارى لأحداث ١١ سبتمبر والمادة ٥، ومع ذلك لم ينطق بكلمة واحدة عن المادة ٥ .

ترجمة: أسماء زيدان